في حدائق العرب

﴿ ليلى العفيفة والبرّاق ﴾

هي ليلى بنت لُكَيز بن مرة بن اسد من ربيعة بن نزار نشأت في حجر أبيها وبرعت بفضلها وكانت تامة الحسن كثيرة الادب وافرة العقل شاع ذكرها عند العرب حتى خطبها كثيرون من سراتهم . وكانت ليلى تكره ان تخرج من قومها وتود لو ان أباها زوّجها بالبرّاق بن روحان ابن عمها. الا انها لم تعصِ امر ابيها وصانت نفسها تعففاً فلقبت بالعفيفة

وكان والدها يتردد على عمرو بن ذي صهبان ابن احد ملوك اليمن فيجزل عطيتهُ ، ويحسن اكرامهُ ، فخطب منهُ ليلى وجهز اليهِ بالهدايا السنية ، فأنف ان يرد طلبته ، وامل ان يكون الملك فرجاً لشدائد قومه ، وحصناً في جوارهم ، وذخيرةً في عظائم امورهم ، فصعب الامرُ على البرّاق لما بلغه الخبر ، واتى الى ابيه واخوته وامرهم بالرحيل فارتحلوا

وثارت في اثناء ذلك حربٌ ضروس بين بني ربيعة قوم البراق وقبائل قضاعة وطيّ . فاتسع الخرق ودارت الدوائر على بني ربيعة . هذا والبراق معتزلٌ عنهم برجاله لرغبة عمه عنه بابنته ليلى . فاجتمع اليه كُليب بن ربيعة واخوته يستنجدونه فقالوا له : يا أبا النصر قد طمّ الخطب ولا قرار لنا عليهِ . وانشده كليب

اليك أتينا مستجيرين للنصرِ　　فشمر وبادر للقتال أبا النصرِ
وما الناس الاّ تابعون لواحد　　اذا كان فيهِ آلة المجد والفخرِ

فناد تجبك الصيد من آل وائل وليس لكم يا آل وائل من عذرِ
فأجابه البرّاق متهكماً

وهل أنا الا واحد من ربيعة أعزُّ اذا عزُّوا ونخرهمُ نخري
سأمنحكم مني الذي تعرفونه أشمر عن ساقي وأعلو على مهري
وأدعو بني عمي جميعاً واخوتي الى موطن الهيجاء أومرتع الكرّ
ثم ردَّهم خائبين

وبلغ الاعداء امتناع البراق من القيام بقومه ، فارسلوا اليه يعدونه بما شاء من الكرامة والسيادة فيهم إن آزرهم على قتال ربيعة . فاخذت البرّاق الغيرة لذلك ، وزال ما كان في قلبهِ من الحقد والضغينة على قومهِ واجاب بني طي

لعمري لستُ أتركُ آل قومي وأرحل عن فنائي أو أسيرُ
بهم ذلي اذا ما كنت فيهم على رغم العدى شرف خطيرُ
أأنزل بينهم ان كان يسرٌ وارحل ان ألمَّ بهم عسيرُ
ألم تسمع استنهم لها في تراقيكم واضلعكم صريرُ . . .

وامر رجاله بالركوب فركبوا وامتطى هو مهرته شبوب وكسر قناته واعطى كلَّ واحدٍ من اخوتهِ كعباً منها وقال لهم : « حثوا افراسكم ، وقلدوا نجائبكم قلائد الجزع في الاستنصار لقومكم »

فامتثلوا رأيه وتفرقوا في احياء ربيعة . واستصرخوا قبائلهم ، فجزعت ربيعة لجزع البرّاق ، وأخذت اهبتها للحرب وتواردت قبائلها من كل فج وعقدوا له الرئاسة في قومه . ثمَّ ساروا الى ديار قضاعة وطيّ فاغاروا عليهم

وانطبقت عليهم فرسان البراق من كل جانب فبرّحوا بهم القتل وانهزم الباقون ، ثمّ عاد القوم الى القتال وطالت الحرب بينهم ، تارة لقوم البراق واخرى عليهم ، إلى ان اظفره الله باعدائهِ وامتلأت ايديه من الغنائم وانقادت له قبائل العرب . وكان قد فكّ اسرى قومه ، واسترجع الظعائن وكانت من جملتهنّ ليلى ، واصطلحت القبائل بعد ذلك وأقرّوا للبراق بالفضل والشرف الرفيع

أما عمرو بن ذي صهبان خطيب ليلى فانه ارسل الى لُكيز والدها يستنجزه وعده في أمر ابنتهِ . فلم يرَ بداً من اجابة دعواه . الا ان ابناً لكسرى ملك العجم حال دون مرامه فأرسل فرساناً سبوها في طريقها وحملوها الى فارس مرغمة . فبقيت هناك اسيرة لا ترضى بزواج . ولما ضيق عليها العجم وضربوها لتقنع بمراد ملكهم استصرخت بالبراق وباخوتها في قصيدتها المشهورة

فلما بلغ بني ربيعة استنجاد فتاتهم استفزتهم الحمية وخنقتهم العبرة . فحشد البراق الفرسان وسار الى بلاد العجم . ولم يزل يكد ويسعى حيناً بالقتال وآخر بالحيلة حتى خلّص ليلى من يد مغتصبيها ، وأعادها الى ديار بني ربيعة . فأثنى عليه قومه ثناءً جميلاً وتزوج بليلى وتولى رئاسة قومه زماناً فأعطى وكسا وقرى وصارت ربيعة بحسن تدبيره أوسع العرب خيراً لما حازوه من الغنائم وكانت وفاته قبل الاسلام بقرن ونصف تقريباً